

## مَجْلَدُ الْإِسْلَامِ كَرِيمٌ فِي كَيْفِ الْإِسْلَامِ

لِلْأَسْتَاذِ مُحَمَّدٍ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَبِيبِيِّ  
مَدِيرِ الْمَسَاجِدِ

—\*—

أعلى الإسلام من قدر المرأة ما وسع الملاء طبيعتها ، وعظم من شأنها ما شامت الخليفة أن تعظم ، ثم وفر لها من الحرية ما يناسبها ويهيئ لها في ميدانها سبيل النفع والخير ؛ فلم يردّها قعيدة بيت بل سيدة بيت ؛ ولم يجعلها مسلوبة الإرادة ، بل شاءها طليقة في مملكتها الصغيرة الكبيرة ، ورجا لها الصيانة في قدس الحيدر

خطب صلى الله عليه وسلم بنت عمه أبي طالب واسمها أم هاني ، وكانت قد تزوجت ونسكت ومات عنها زوجها . فما الذي ألهمها الإسلام أن تقول في جواب هذا المرض المحمدي الشريف ؟ لقد قالت مخاطبة صاحب الشريعة صلى الله عليه وسلم : « يا رسول الله ، لأنّ أحب إلي من سمى ومن بصرى ؛ وإني امرأة مؤتمّة ( مات عني زوجي ) وبني صغار ، وحق الزوج عظيم ، فأخشى إن أقبلت على زوجي أن أضيع بعض شأني وولدي ؛ وإن أقبلت على ولدي أن أضيع حق زوجي »

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن خير نساء ركبهن الإبل نساء قريش : أخناهن على ولدي في صفره ، وأراعهن على بعل في ذات يده »

لم تكن تلك الحرية فيمن تختاره المرأة لنفسها قاصرة على كرائم أحرارهن ، بل بسطها الإسلام حتى على من كانت أمة وخلعت من الرق .

ملك عقبة بن أبي لهب جارية حبشية اسمها بريرة ، وزوجها عبداً من العبيد ، فكانت تضيق به وتتبرم منه . ولكنها مملوكة ، وأمرها ليس بيدها . فلما علمت عائشة أم المؤمنين بما تعانيه « بريرة » في هذا الزواج اشتريتها وأعتقها . فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ملكتك نفسك فاختراري » فاخترت أن تنجو بنفسها من هذا الزواج الذي لا تطيب به . فكان زوجها بعد هذا الفراق يعيش خلفها ويسكن ويسترضيها ، فلا رضى عنه . وكان يرى له كل من يراه خلفها باكياً . رآه صلى الله عليه وسلم مرة وتلك حاله فقال لأصحابه : « ألا تعجبون من شدة حبه لها وبغضها له ! » ثم قال لها : « اتقي الله فإنه زوجك وأبو ولدك » فقالت : « أتا مني يا رسول الله ؟ » فقال : « لا . إنما أنا شافع » فقالت : « إذن ، فلا حاجة لي إليه . . . »



أقام المشرع الإسلامي قواعد للجمع ، على أسس اجتماعية أصلها ثابت وفرعها في السماء . ونظّر إلى الدعامة الأولى لبناء الأفراد وهي المرأة ، فجعلها قسيمة الرجل في الحياة ، أمّا أو زوجة ، ثم أوضح لها شرعتها

حكيمه مسددة تمهد لها كل ما هو ميسر لها ، متنسق مع طبيعتها . وطبيعة المرأة : وجدان متأثر ، وعاطفة مشبوبة ، وجانب لين ، وأجزاء دقيقة ، وهيكلي متأنق ، وروني متألّق ، ولطف ساحر في التأسية ، وفيض صاف من الحنان

ولقد تنطق المرأة بكلمة تواسي بها الرجل إذا تفرّغ فؤاده من الهول ، فتفعل الكلمة فعلها في قلبه ، وتؤثر وتجدى ما لا يؤثره أو يجدي به بلاغة الأساة من الرجال . ولعلك على ذكر من كلمة خديجة أم المؤمنين يوم جاءها زوجها محمد صلى الله عليه وسلم وفؤاده يرجف من لقاء الملك ، ومن تلقى الوحى ، وهو أمين الله وعخته جلادة وقوة وصبراً واحتمالاً ، فلم يكن منفرج الروح ، ولا ذهاب الخوف إلا ساعة قالت خديجة كلمتها ، كلمة الواساة والترفق والأمل : « كلا والله لا يخزيك الله أبداً . إنك لتحمل الكل ، وتكسب العدم ، وتعين على نوائب الدهر »

\*\*\*

سمعت ما سمعت ؟ » قالوا : نعم . قال : « فوالذي نفسي بيده ما علمت بشيء مما كان حتى سمعت ما سمعت . المؤمنون يد على من سواهم ، يجبر عليهم أديانهم ، وقد أجرنا من أجرنا » فلما انصرف النبي صلى الله عليه وسلم إلى منزله دخلت عليه زينب فسألته أن يرد على أبي العاص ما أخذ منه ، ففعل ...

ولقد حسن شأن أبي العاص ، وحلت الهداية قلبه ، فعاد إلى مكة وأدى الحقوق إلى أهلها ، ثم رجع إلى المدينة مسلماً ، فرد رسول الله إليه زوجته زينب الوفاة البارة .

\*\*\*

رأى المشرع الإسلامى أن صيانة الأعراض وحرمة السير وكرامة الأسر من حقوق المجتمع ، بل من أسباب بقائه ونموه ؛ ذلك بأن الخليقة الأولى من خليات المجتمع هي الأسرة ، والأسرة لا قوام لها إلا بالرجل ، يندفع لحمايتها ، وينبث لرعايتها ، ويمانى أخطار الحياة ، ويحجوب العاصم والخراب — كل ذلك ليوفر لأبنائه ولييته أسباب الحياة وسعادة العيش ؛ وما يدفعه إلى ذلك إلا حنان الأبوة ، ووشائج النسل ، وشعور ملتهب بأن الولد قطعة من أبيه ، وفلذة من كبده ، فمن أين تم للرجل تلك الدوافع وهاتيك الرغبات إذا هو ارتأب أو حاك الشك في نفسه صحة انتساب ولده إليه ، أو خلوص زوجته له ... !

لهذا أحاط الإسلام المرأة بسياس حمين ، وأمن الرجال على أنسابهم وأعراضهم ، لصالح مجتمعهم ، ثم توعدهم — في أسلوب قوى رائع — كل من يمس قداسة الطهر ، أو يتعرض — على غير علم — لصفة المرأة ، أو جرى على لسانه الهُجْرُ والفحش في سيرتها ...

يقول تعالى : « والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون »

فانظر كيف حدد الله للتهجم على الأعراض عقوبة جسيمة ثم أردفها بأخرى أنكى وأخزى وأبقى على الأيام ، تَنِيْمُ القاذِفِ بِمِسمِ الخزى وتهمه — أبد الأيام — بفقدان الثقة وخيبت التهمة ومرضى الضمير . ثم يحم سبحانه الآية بتسجيل فسق القاذف

هكذا تقررت حرية المرأة في أمر نفسها ، حرية تكفل للبيت النعيم ، وتوفر لها الهتاء . وبهذا جاء الإسلام موقراً لرأيها ، محافظاً على كيانها ، مظهرآ لشخصيتها . فإذا ما أجارت المسلمة لاجئاً ، أو أمنت أسيراً ، فقد أجاز المسلمون — جميعاً — من أجارت ، وفكوا من أطلقت ، وحجوا من استعاذ بها ...

ورد في صحيح البخارى أنه لما نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعلى مكة يوم الفتح احتفى رجلان بأُم هانى بنت أبي طالب وهي مسلمة ، فدخل عليهما أخوها على وهَمَّ بقتلهما ، فأغلقت دونه الباب ، وجاءت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : « مرحباً وأهلاً يا أم هانى ، ما جاء بك ؟ » فأخبرته خبر الرجلين وخبر أخيها على ، فقال عليه السلام : « قد أجرنا من أجرت يا أم هانى وأمنتنا من أمنت »

فقد أجاز المشرع لعقيلة مسلمة كريمة أن تفك عانيآ أمره المسلمون في غزواتهم ، وقد كانت بين الأسير وبين الكريمة أسباب وثيقة ، فها هو إلا أن عاذ بها واستجار في حماها ، فأجارته

\*\*\*

ولقد كانت كبرى بنات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهي زينب قد تزوجت من ابن خالتها أبي العاص بن الربيع ، وكان أبو العاص يخص زوجته زينب بإكباره وتكريمه ، فلما انصرف عن الإسلام بادی الأمر وزوجته مسلمة فرق بينهما الإسلام ، وهاجرت زينب ، وبقي هو منصرفاً عن الإسلام ؛ غير أن حينه لزوجه لم يفتر ، فكان يرسل لوعته الحرى في أبيات من الشعر الرقيق ويقول :

ذكرت زينب لما وركت إرماً فقلت سقي الشخص يسكن الحرما  
بنت الأمين جزاها الله صالحة وكل بعل سينبى بالذى علما  
ثم خرج إلى الشام في تجارة لقريش ، فمرض للقايلة زيد بن حارثة في جمع أرسله محمد عليه السلام ، ففتموا المال وأسروا الرجال . وكان في الأسرى أبو العاص ، فاستجار بزينب ، فرجت أن تحقق لإبارته وأن تحميه ، وترقت صلاة الفجر ، وأبوها يؤم المسلمين ، فلما انتهوا وقفت بباب المسجد ونادت بأعلى صوتها : « إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع » . فقال صلى الله عليه وسلم : « هل

ويؤدين للأسرة حقها ، وهن من وراء حجبهن . بل لقد غلن في الحجاب يومذاك غلواً كبيراً ، فلن تخرج واحدةن إلا وهى ملثمة ، وعليها الأردية السابنة ، ومن فوقها المباءات التى لا تبين تقاسيم الجسم — فى ذلك الحين برع الرومان فى كل شىء ، فى الملك والصناعة والتشريع ، ودانت لسلطانهم الشعوب . فلما بلغت الدولة مداها ولع الناس بالترف ، وغرهم النعيم ، وأفسد أجسامهم البذخ ، فقدوا يتذكرون اللذات من غير تخرج ولا تأثم ، حتى فترت غيرتهم ، وامت نخوتهم ، فتضعفت قوة الملك ، وهى صرح المجتمع ، ولم تلبث دولة الرومان العظيمة أن تساقط ملكها ، وانتزع الفساد شوكتها ، وراحت صريمة الشر الاجتماعى الذى نزل بالمرأة من عليائها إلى الحضيض ، وهوى بالدولة معها إلى الفناء .

\*\*\*

ولقد نسمع المفكرين وذوى المذاهب الإصلاحية الاجتماعية يتصايحون اليوم : أن ارجعوا للمرأة إلى ما خلقت له ، وجنبوها من الرق الاجتماع ، واجعلوا تحت نظرها كتب التهذيب الدينى ، والتدبير اليبى ، لتروى أبناءها من منافع الدين وأصول الفضائل ، وتحكم بتدبيرها نظام الأسرة الذى أوشك يتداعى . فهل من سميع ؟ وهل من مجيب ؟ لنا فى تراننا مرجع لصد العابثين ، وإيقاظ السامدين . إن فى تربية الإسلام للمرأة ما يوفر لها حريتها ومجدها وكرامتها .

الحمد لله

وخروجه عن طاعة الله ونبذه من المجتمع الأخلاق ... ثم شاء — جل وعلا — ألا يدع هؤلاء الرافقين فى الأعراض حتى يجعل الخزى والعار ناطقاً بشناعتهم مشهراً بسوأتهم فقال :

« إن الذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات لعنوا فى الدنيا والآخرة ولهم عذاب عظيم ، يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون ، يومئذ يوفيه الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين »

ولقد ثقف الإسلام المرأة ثقافة يتطلبها شأنها ، ثقافة دينية خلقية ، فكان عليه الصلاة والسلام يحمل للسلمات يوماً كل أسبوع يملهن ويثقفهن ، وكان كريم الصبر فى إرشادهن ، فسيح اللبان فى هدايتهن

أخذ عليهن — عندما كن يباينه مرة — ألا يتحن على الموتى . فقالت هجوز ممن حضرن : يا رسول الله ، إن أنا لم أسمعدوني على مصيبة أصابتنى ، وإنهم أصابهم مصيبة ، فأنا أريد أسمعدهم .. فقال لها عليه السلام : « انطلقى فأسمعديهم » ثم عادت فباينه .

تلك بعض نظرات الشرع الإسلامى إلى المرأة ، فأين نحن ؟ وكيف صرنا ؟

لقد يروى لنا المؤرخون أن دولة الرومان يوم تألق نجمها ، وعظم سلطانها ، واستبحر عمراتها ، كان الشطر الثانى للمجتمع وهو النساء ، لا يعرفن غير البيت والأسرة ، يقمن البيت بواجبه ،

أمر المرضى بالبولسك  
لا محو لكم أن يأسوا من مرضكم  
فهدى الدوا  
أن تجربوا  
أمرى ببولسك  
نفسكم  
المرضى  
الطبيب الساتك الدوا  
جلا لهورين  
صرب ٢١٠٥